في ارض الجليل

تتمة ما ورد في الجزء الاول

جبلان في هذا السهل يقدسهما المسيحيون لما لهما من الشأن في تاريخ الدين وهما من اجمل الجبال يبعثان النفوس الى عبادة الخالق تعالى وتمجيده وهما جبل الطور وجبل الكرمل · فالاول على مقربة من الناصرة قائم في وسط سهل يزرعيل يعلو نحو خمسمائة متر وهو عن سطح البحر ٦٠٢ قدمين وهو جميل المنظر وشكله عجيب في ابتدائه ورؤيته وتجد في منحدراته شجر السنديان والخروب والبطم والمصطكى وغير ذلك · وقد ذكر بعض سياح الافرنج الذين زاروا هذه البلاد في القرن التاسع للميلاد انه كان يصعد الى قمة الجبل من سفحه ٤٣٤٠ درجة والطريق الى القمة يدل على ذلك وسطح القمة ١٢٠٠ متر طولاً و ٤٠٠ متر عرضاً وفي احد سفوح الجبل آثار مدينة عبرانية قديمة تسمى العورة او ابو عمود وكانت مطلة على الوادي الذي كان طريق الزوار والجيوش المصرية قديماً وموقعه من احسن المواقع الحربية وفي سفح جبل تابور وفي سنة ٥٣ م حدثت ملحمة كبرى بين اسكندر بن ارستوبولس واولوس كابينوس احد قواد بومبيوس الامبراطور الروماني وبعد قرن حين ثار اليهود على الرومانيين احدث يوسيفوس خنادق على قمة الجبل وكذلك فعل الصليبيون في القرن الثالث عشر للميلاد فاقاموا حصناً منيعاً نجد اليوم بعض آثاره ولقد تقاسم الروم واللاتين في عهدنا سطح الجبل وجعلوه اديراً ·

كان جبل الطور ذا شأن عظيم في عهد الصليبيين لاشرافه على بلاد الاردن · قال ياقوت: والطور جبل بعينه مطل على طبرية الاردن بينهما اربعة فراسخ في رأسه كنيسة واسعة محكمة البناء موثقة الارجاء يجتمع فيه كل عام بحضرتها سوق ثم بنى هناك الملك المعظم عيسى بن الملك العادل ابي بكر بن ايوب قلعة حصينة وانفق عليها الاموال الجمة واحكمها غاية الاحكام فلما كان في سنة ٦١٥ هـ وخرج الافرنج من وراء البحر طالبين بيت المقدس امر بخرابها حتى تركها كامس الدابر ·

ويقول مؤرخو الصليبيين ان الذين خرجوا من وراء البحر من الافرنج طالبين المقدس سنة ١٢١٧ م كانوا اندراوس الثاني صاحب المجر ولوبولد دوق النمسا وهيو

كونت فلاندر ولويس التاسع ويوحنا دي بريان ملك القدس وهوج دي لوزينان صاحب قبرص جاؤا في خمسة عشر الفاً من رجالهم وحاولوا مرتين فتح قلعة الطور فارتدوا عنها خائبين فرأى الملك العادل هدمها لامتناعها وحرصاً على السلام ان يدك ذلك الحصن بعد خمس عشرين من بنائه وفي سنة ١٢٦٣ جاء الظاهر بيبرس البندقداري من مصر في جيش ضخم وعسكر في منحدر جبل الطور وخرب فيما قيل الاماكن الدينية التي كانت فيه وجعل عاليها سافلها وفي سنة ١٦٣١ استحصل دوقية طوسكانيا في صيدا من الامير فخر الدين المعني رخصة تجيز لرهبنة الاخوات القاصرين ان يقيموا في جبل الطور ومنذ ذلك العهد اصبح هذا الجبيل معاهد العبادة والنسك

هذه نبذة من تاريخ الطور ويقال له جبل التجلي كما يقال له جبل تابور .

اما الكرمل فهو ايضاً من الحصون المهمة قال ياقوت : كَرْمَل بالكسر ثم السكون وكسر الميم ولام هو حصن على الجبل المشرف على حيفا بسواحل بحر الشام وكان قديماً في الاسلام يعرف بمسجد سعد الدولة . ولكن يغلط الناس اليوم في فتحهم كاف الكرمل والصحيح كسرها وهذا الجبل اطول من الطور يمتد من الشمال الغربي الى الجنوب الغربي على طول ٣٤ كيلومتراً ويختلف عرضه من ٥ الى ٨ كيلومترات ولا يبلغ علوه في الشمال الغربي اكثر من ثلاثمائة متر على حين يبلغ في الوسط ٥٤٠ متراً وهو مشرف على البحر من جهة وعلى سهل يزرعيل الخصيب من جهة اخرى

ومعنى كرمل بالعبرانية الحديقة ورد ذكره في التوراة اشارة الى الجمال والخصب وهو من اشهر (١) جبال غربي الاردن يبتدئ من رأس قرب حيفا وينتهي بوادي الملح مقابلاً بلعام طوله نحو ١٢ ميلاً واعلى رأسه عند عسفيا نحو ١٧٢٩ قدماً ويعرف هذا الجبل بجبل النبي الياس لانه اقام فيه وكان الكرمل في كل عصر موطن التفكر والعزوف عن الدنيا وذلك في ايام الوثنية والنصرانية حتى ان الفيلسوف فيثاغورس اليوناني كثيراً ما كان يذهب للتعبد والتفكر في الكرمل المقدس وفي عهد دارا بن هستاسب ملك الفرس (٥٢١ — ٤٨٥ ق . م) كان يعبد في الكرمل كوكب المشتري وقال بعض مؤرخي الرومان ان الكرمل نفسه كان معبداً فلم يكن فيه معبد ولا هيكل بل ليس فيه الا مذبح وعباد يتعبدون وكان في النصرانية معبداً لرجالها حتى نشأت في القرون الوسطى فيه رهبنة الكرمليين المشهورة في المشرق والمغرب وهو اليوم مقسم بين

---

(١) جغرافية الكتاب

اهل المذاهب المختلفة من المسيحيين اتوا فيه الاديار وغرسوه انواع الاشجار واستغلوا به حتى لا يطرقه طارق الا بعد اذن وهو مطل على حيفا وعكا للناظر الى بلاد الجليل ولاسيما سهل يزرعيل او مرج ابن عامر المعروف في التوراة ببقعة مجدو وبقعة مجدون ووادي يزرعيل وهو [1] مرج واسع واقع بين جبال الجليل وجبال السامرة طوله من الشرق الى الغرب ٢٠ ميلا وعرضه من ميلين الى ١٢ ميلا وهو مثلث الشكل وقاعدة هذا المثلث ضلعه الشرقي وهو خط يمتد من جبل جلبوع والدحي وتابور الى جبال الجليل او الناصرة ومن هذه القاعدة يتفرع ثلاثة فروع نحو الشرق فرع بين جلبوع والدحي وفرع بين الدحي وتابور وهو الاخصب والاشهر وفرع بين تابور وجبال الناصرة وعند هذه القاعدة ترتفع الارض فيتحول مجرى الماء الى الشرق والغرب ويشق هذا السهل من الشرق الى الغرب نهر قيشون المسمى الآن المقطع ومع كل ما هو عليه من الاهمال الآن لا يزال هذا السهل في غاية الخصب وكان اعظم ساحة حرب في هذه البلاد .

ثم ان العناية بهذا السهل قليلة لان اصحابه اغنياء كانوا ابتاعوه بالمناجية ورشوة وذلك ان قراه كانت لاناس من الفلاحين فلما ارادت الحكومة منذ نحو اربعين سنة ان تسجل قوائم التمليك منها ضرائب وكان الفلاح يرتعش من سماع الضرائب ويخاف ان يعرف انه مالك ارض فابوا ان تسجلوها باسمائهم تفاديا من الظلم الذي كان ينال الفلاح يومئذ فانبرى والي سورية اذ ذاك الى بيع تلك القرى او سهل يزرعيل برمته باعتباره من الاراضي الاميرية المحلولة فكان من اولئك الاغنياء الا ان ابتاعوا السهل كله صفقة واحدة وهو اثنتا عشرة قرية لا يقطعها الفارس في اقل من ثماني ساعات طولا وذلك حتى لا يتيسر لاحد الاهالي ان يتجرأ فرشوا الوالي فيما قيل بثلاثة آلاف ليرة وابتاعوها باقل من خمسة عشر الف ليرة ونالوا به التيسر مع الوالي في دارهم ولم يمض العامان الاولان من البيع الا وقد خرج الوالي كما دخل صفر اليدين من المال الذي ناله من طريق الرشوة وعسر بالامة والدولة لان اولئك الاغنياء خسروه في القمار بالاسماء كان الا مظهر رشوة في البلاد . وهكذا حرم اصحاب هذه القرى الحقيقيون منها بجهلهم وسوء ادارة الحكومة اذ ذاك وتشتتوا في البلاد وبعضهم استخدموا اجراء في قرى الاغنياء وكانوا من قبل في نعمة ولكن من اهل البلاد

---

[1] جغرافية الكتاب

بغير حرب يهون عليه تسليمها فان اولئك المالكين زهدوا فيما ملكوا لانهم بعيدون عنها والارض لمن يقوم على تعهدها فهو هو مالكها الحقيقي لا من يكتفي من ريعها بما يحصل · فباع بعض اولاد اولئك الاغنياء ما ورثوه من آبائهم واكثرها انتقلت الى ايدي الجمعية الصهيونية ويوشك ان يباع ما بقي ولكن بمئات الالوف من الجنيهات لارتقاء الاسعار ولان الصهيونيين آلوا على انفسهم ان يملكوا فلسطين وارض الميعاد · وبذلوا فيها مهما كلفتهم

ولا بأس هنا من الاشارة الى الجمعيات الاسرائيلية وما ترمي اليه من المقاصد فهي عدة جمعيات منها جمعية احباء فلسطين وهي منتشرة في عامة الاطراف ومنها تتفرع جمعية معاونة فلاحي اليهود وصناعهم في فلسطين وسورية وهذه الجمعية روسية ولهاتين الجمعيتين فروع كثيرة في القدس ويافا واعمالها وحيفا واعمالها وصفد وبلاد بشارة وحوران وعبر الاردن ويقدر الخبيرون عدد افرادها بمئة وخمسين الف نسمة يزيد عددهم كثيراً بما ينضم اليهم كل شهر من اخوانهم الاوربيين الذين يرحلون بذويهم من اوربا الى الارض المقدسة · وعضد هاتين الجمعيتين ان الاسرائيليين الاغنياء من مشهوري الاغنياء كهيرش وروتشيلد وبرك وفليبو بكفوري وغيرهم ممن ابتاعوا الاراضي لابناء ملتهم وامدوهم بالمال ليتوفروا على استثمارها على نحو ما تشاهد في زمارين مما يدل بلسان حاله ان الصهيونيين سيعيدون مجد آبائهم في فلسطين ويستولون عليها وهاك ما يقوله العارفون بهذه المسألة التي يهتم لها كل من عرف تاريخ السياسة ويغار على مصلحة البلاد فقد قال احدهم (1) ان آمال اليهود في استرداد فلسطين بلاد آبائهم واجدادهم واعادة مجدهم وملكهم فيها قديم يعود الى عهد الرومان وتؤيده حروبهم العديدة مع المملكة الرومانية وفي كل ما كتبه في حروب اليهود يوسيفوس آيات بينات على ذلك ولكن هذه الآمال خابت بعد ان شتتهم في الارض ادريانوس في القرن الثاني بعد المسيح وفرق شملهم وابعدهم عن صهيون او اورشليم او القدس عاصمة مملكتهم القديمة ومدينة هيكلهم العظيم ولكنها ما لبثت ان ظهرت في صورة ثانية في عهد قسطنطين الذي اذن لهم بالدخول مرة في السنة الى اسوار بيت المقدس ليندبوا مجدهم الزائل وما زالوا الى يومنا هذا يندبون من خلف الحرم الشريف الخارجي المسمى بالبراق ويتذكرون مجد ملوكهم وعظمة هيكلهم ومدينتهم ويطلبون من الله ان يعيد ما خسروه

---

(1) نجيب افندي نصار

ولكن رجال [illegible] مساعد [illegible] الدكتور [illegible] الى الجمعية الصهيونية التي جعلت همها [illegible] كلمة اليهود الى [illegible] ويعلمهم [illegible] المساعد التي يحصرونها [illegible] لا يستطيع احد [illegible] واوص الدكتور [illegible] حكومة [illegible] فعهدت [illegible] الصهيونية الى [illegible] الاستعمار [illegible] الى جمعية الاتحاد الاسرائيلي (الباتس اسرائيليت [illegible]) [illegible] الى جمع المال وتوحيد كلمة اليهود وانقاذ رجال الحكومة [illegible] ورفعت من مقاصدها

ثم ان الجمعية [1] الصهيونية [illegible] والناس [illegible] ساعيات في [illegible] فلسطين الى [illegible] في الاصلاح [illegible] والتأييد من الرؤيا مع الكتاب المقدس الباحث عن اسرائيل اليهود [illegible] وعد الرب رجوعهم الى فلسطين [illegible] في آخره

ويشترون الحقول بفضة ويكتبون [illegible] ويختمون ويشهدون شهوداً في ارض [illegible] وحوالي اورشليم [illegible] مدن يهودا ومدن الجبل ومدن السهل ومدن الجنوب لاني ارد سبيهم يقول الرب [illegible] حكومة الكلدان الى اليهود [illegible] البناء من بعد ذلك [illegible] حكومة الرومان في [illegible] وحكومة الرومان في [illegible] ولم يبق لهم ملك ولا دولة والآن عملاً بهذه الآية [illegible] الاراضي في فلسطين [illegible] الفضة [illegible] البيع الى ان [illegible] ويكتبون الصكوك [illegible] وهكذا [illegible] لا يفترون طرفة عين وهم [illegible] الاراضي [illegible] من [illegible] هذه البلاد [illegible] عن لواء عكاء [illegible] لواء نابلس [illegible] من لواء الكرك وبعض من [illegible] ويختمون [illegible] ويكتبون الصكوك ويشهدون عليها [illegible] الحكومة [illegible] منعت [illegible] في [illegible] والقدس [illegible] من [illegible]

---

(1) شكري [illegible]

اليوم [illegible] من الغرب الى الشرق وكل ذلك باسماء العاملين وبدلالة [illegible] الحاخامين الذين يعدون انفسهم من سراة القوم واسياد البلاد وهكذا اشتروا الكثير من القرى واستولوا عليها وهم لا يخالطون العرب ولا يشترون منهم شيئاً ولم يملك اكثر فلسطين بغرضهم بفائدة لا تتجاوز الواحد في الالف في السنة ولقد جعلوا كل قرية ادارة فيها مدرسة ولكل قضاء مديرية ولكل جهة مدير عام ولهم راية لونها ازرق وفي وسطها خاتم سليمان وتحته كتابة عبرانية معناها «صهيون» لانه جاء في التوراة ان اورشليم ابنة صهيون ويرفعون هذا العلم [illegible] على الاهالي في الاعياد والمواسم وعليهم ينشدون نشيد الصهيونيين وقد احدثوا في الحكومة ليبدوا انفسهم عثمانيين في ظل الفرس كذباً وبهتاناً وهم لا يزالون حاملين الجوازات الاجنبية التي تحميهم وعندما يصبرون الى الحاكم العثمانية يظهرون جوازاتهم ويدعون الحماية الاجنبية ويحلون دعاويهم واختلافاتهم فيما بينهم بمعرفة المدير ولا يراجعون الحكومة ويعلمون اولادهم الرياضة البدنية واستعمال السلاح وترى بيوتهم طافحة بالاسلحة وفيها كثير من الرتب ولهم بريد خاص وطوابع خاصة وفوق ذلك ما يدهش هو انهم بدأوا بتأسيس معاهدهم السياسية وتأليف حكومتهم الخيالية فاذا لم تضع الحكومة حداً لهذا السيل الطافح لا يبقى في فلسطين زمن الا وتراها اصبحت ملكاً للجمعية الصهيونية ورفيقاتها الوطنية المذكورة

الى هنا ما يقال في الاستعمار الصهيوني وعواقبه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وهو مما يستحق الملاحظة المجردة نفوسهم عن الاغراض وهناك استعمار آخر في فلسطين والجليل وهو اقل منه خطراً وهو استعمار الجالية من الاوربيين ليتخذوا هذه البلاد موطناً لهم على انهم لا ينسوا مساقط رؤوسهم ويطلبوا من [illegible] دولهم كالالمان في يافا وحيفا مثلاً

فقد اتت عشرات من الأسرات الالمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحلت في تلك البلاد قادمة بدينها من المانيا الى هذه الارض المقدسة وهي من [illegible] المبكليين او اصحاب اورشليم الجديدة سنة ١٨٦٢ في ادارة ورتمبرج في المانيا بسبب الحركة الدينية التي احدثها هوفمان الذي ذهب الى ان الرأي الحالي في دين النصرانية لا يكون سبيلاً الى ان يحيا المتدينون بها حياة صحيحة حقيقية فاخذ اشياعه على انفسهم ان يقيموا ملكوت الله في الارض وان يبدأوا بذلك من ارض

الوطنية [illegible] يعيشون [illegible] الكنيسة والقسيس [illegible]
[illegible] تقسيماً [illegible] سنة [illegible] مستعمرة في حيفا وسط الوقت نفسه
[illegible] مستعمرة [illegible] الآن [illegible] مستعمرات يناهز سكانها ٣٠٠
وقد [illegible] البلاد وتحت [illegible] الشغل في شؤونها احياناً

ولا [illegible] من ساكنيه هؤلاء الالمان من اهل حيفا [illegible] في [illegible]
[illegible] حي الالمان [illegible] في الشمال الغربي من حيفا والى [illegible]
[illegible] لا يجدون من [illegible] مرح والد
[illegible] في تلك [illegible] والبيوت [illegible] الحدائق
[illegible] الى [illegible] من [illegible]
[illegible] الالمان [illegible]
[illegible] حتى اصبح
[illegible]

[illegible] من [illegible] عشرات من الافدنة
من ارض [illegible] سنين حتى [illegible]
[illegible] مئات الافدنة [illegible]
[illegible] الشيء
قد [illegible] في [illegible] من [illegible]
[illegible]

[illegible] في المستعمرة الالمانية في حيفا وقد [illegible]
[illegible] في [illegible] و
[illegible] في الارض [illegible]
من [illegible] [illegible] ان [illegible]
[illegible] في السنة [illegible]

---

(١) [illegible] والعصبة [illegible] في [illegible]

السكان لا في المكان . فهو السر في السكان ولا عجب اذا رأينا الالمان في مقدمة دول الارض بعلومهم وصناعتهم واخذ اليهم في الفنون وعندهم مثل هذا الشعب النشيط الذي يعلم بعمله اهل النشاط من الامم دروساً سامية فما بالك به مع العاملين .

وفي ذكر حيفا لا بأس بايراد نبذة موجزة من تاريخها لتسلسله الى حالتها اليوم فنقول :

كانت حيفا قديماً تسمى قيلون وليس لها ذكر في التوراة وتاريخها القديم غامض لا شأن له . ولقد كان الساحل من نصيب قبيلة بزر ولما وصل الاسرائيليون الى هذه البلاد لم يستطيعوا ان يستولوا على مدينة من المدن الساحلية ومن جملة الملوك الذين اخضعهم جوزوي في شمالي فلسطين كان ملك شاطئ ملك الكرمل والكرمل كانت كما يقول المؤرخ بلين هو الجبل المسمى به حيفا وكان اسمها قديماً اكباتان وكانت في جوار حيفا او قيلون مدينة اسمها سيكامينوس اي مدينة الصبار لكثرة هذا الشجر في ارضها فكانت قيلون وسيكامينوس مدينتين متنافستين تعمر الاولى وتخرب الثانية وهكذا كانت المنافسة بينهما سجالاً الى القرون الوسطى وقد زالت سيكامينوس من لوح الوجود ابد الدهر . فتاريخ المدينتين كما قال بوتيه بيترمان ممزوج بعضه في الآخر . ولقد روى التاريخ ان بطليموس لاتيرحا كم جزيرة قبرص بعد ان طردته امه كليوبترا من مصر جاء سنة ١٠٤ ق . م لنجدة عكا وكان يحصرها اذ ذاك اسكندر جانى ملك يهودا فانزل جنده وكان ثلاثين الفاً في مدينة سيكامينوس وفي اوائل التاريخ المسيحي لم تكن سيكامينوس ذات شأن هي وسائر المدن المجاورة لها وكانت مدينة عكا على رأي سترابون ارقى تلك البلاد وتجيء بعدها قيسارية Césarée

وكثيراً ما يذكر اسم الكرمل وبعض المدن مثل سيكامينوبولس وبوكولوبوليس وكروكوديلوبوليس وغيرها وذكر المؤرخ بلين امور كهذه . وقد ازهرت مدينة سيكامينوس ومدينة قيلون في القرن السادس للميلاد .

ومعنى حيفا العبرانية الرأس او الارض الساحلة في الغرب لانها انشئت في جوار الكرمل وهو لها معتصم وملجأ وحيفا القديمة كانت في مكان لا يبعد كثيراً عن حيفا الجديدة عرفت آثاره كما ان مدينة سيكامينوس تبعد [illegible] كيلومترات من حيفا القديمة وقد اكتشفت بعض آثارها وعادياتها وهي رومانية يونانية

ولقد كانت حيفا في الاسلام من جملة الحصون المشرفة على البحر الرومي لاسيما وانها

[illegible] الجزيرة [illegible] [1] في الحرب الصليبية الى ان غلب عليها كونرى الذي ملك بيت المقدس سنة ١٠٩٤ [illegible] الى ان فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٨٣ (١١٨٧) وكانت حيفا من نصيب الملك تنكرد الذي اصبح اميراً في بلاد الجليل من طبرية الى حيفا ولما سقطت عكا في ايدي الافرنج سنة ١١٩١ [illegible] صلاح الدين حيفا [illegible] حتى لا [illegible] منها الا الخراب . ولكن هؤلاء [illegible] سنة ١٢٩١ وظلت حيفا خاملة الذكر الى ان كان القرن الثامن عشر فاستولى عليها الشيخ ظاهر العمر كما استولى على ارض الجليل ودكها لجعل عاليها [illegible] وانشأ له قصراً من جنوبيها يطل عليها .

والظاهر عمر هذا كان من أسرة [illegible] الزيادنة ورث من ابيه الحكم في مدينة صفد [illegible] على طبرية سنة ١٧٣٨ [illegible] سنة ١٧٤٩ واصبح شيخاً في بلاد الجليل كلها وكانت [illegible] الى العمران بحيث يشبه [illegible] الامير فخر الدين المعني الكبير [illegible] في القرن الحادي عشر للهجرة وقد قتل الشيخ ظاهر العمر مع [illegible] غدر به احد [illegible] واستولى على الحكومة دونه .

واستولى نابليون على حيفا سنة ١٧٩٩ [illegible] ضربه الاسطول الانكليزي [illegible] وفي سنة ١٨٣٢ احتلت عساكر ابراهيم باشا المصري مدينة حيفا وفي سنة ١٨٤٠ [illegible] حيفا [illegible] من قذائف الاساطيل الانكليزية [illegible] الجيش المصري [illegible] الى الدولة العثمانية وقد [illegible] واخذت بعض السفن التجارية ترسو فيها قليلا [illegible] اليها [illegible] حبوب حوران وحاصلات الجليل وقد زادت مكانة [illegible] سنة [illegible] السكة الحديدية الحجازية التي انشئت [illegible] محطة مهمة [illegible] حتى كانت [illegible] تنسى ذكر [illegible] .

[illegible] عشرين الف نسمة [illegible] الاسرائيليون [illegible] لم [illegible] في [illegible] الحكومة [illegible] والباقون مسلمون ومسيحيون ويقصد اليها [illegible] السنة [illegible] ٣٠٠ [illegible] ٤٠٠ [illegible] ويحمل منها [illegible] عشر الف طن من الحبوب والذرة والسمسم [illegible] عشرة آلاف طن من البضائع [illegible]

---

[1] [illegible] في البحر

ولاسيما من نهر المقطع اوقاديشا الفاصل بين ارض الجليل وفينيقية و بين ارضها ارض عكا لو صحت العزية على ذلك · وهواؤها جيد ومناظرها الطبيعية رائقة ويكثر فيها النخيل ·

اما عكا وهي الآن مركز اللواء وقضاء طبرية وقضاء صفد وقضاء الناصرة من اعمالها وبعبارة ثانية هي قاعدة بلاد الجليل على ما اصابها من الانحطاط الشديد · ويؤخذ مما ورد في سفر القضاة ان عكو (١) اي عكا لم تكن مدينة اسرائيلية ولم تصبح مستعمرة يهودية الا بعد ازمان طويلة · وكان اليونان يربطون عكا بفلسطين ثم دعيت بعد باسم بطولمايس نسبة الى احد بطالسة مصر وربما كانت بطليموس ابن لاغوس وذكر مؤلفو الرومان والنقود التي عثر عليها من عهدهم ان عكا كانت مستعمرة للامبراطور كلوديوس وكانت ذات منعة من حيث هي مدينة بحرية واستولى عليها العرب سنة ٦٣٨ ففقدت اذ ذاك اسمها اليوناني

قال ياقوت العكة الرملة حميت عليها الشمس وعكة اسم بلد على ساحل بحر الشام من عمل الأردن وهي من احسن بلاد الساحل في ايامنا هذه واعمرها قال ابو عبدالله محمد بن احمد بن ابي بكر البناء الشاري : عكة مدينة حصينة كبيرة الجامع فيه غابة زيتون يقوم بسرجه وزيادة ولم تكن على هذه الحصانة حتى قدمها ابن طولون وكان قد رأى صور واستدارة الحائط على ميناها فاحب ان يتخذ لعكة مثل تلك المينا فجمع صناع الكور وعرض عليهم ذلك فقيل له لايهتدي احد الى البناء في الماء في هذا الزمان ثم ذكر له جدنا ابو بكر البناء وقيل له ان كان عند احد فيه علم فهو عنده فكتب اليه واتي به من القدس وعرض عليه ذلك فاستهان به والتمس منهم احضار فلق من خشب الجميز غليظة فلما حضرت عمد يصفها على وجه الماء بقدر الحصن البري وخيط بعضها الى بعض وجعل لها باباً عظيماً من ناحية الغرب ثم بنى عليها الحجارة والشيد وجعل كلما بنى خمس دوامس ربطها باعمدة غلاظ ليشتد البناء وجعلت الفلق كلما ثقلت نزلت حتى اذا علم انها قد استقرت على الرمل تركها حولا كاملا حتى اخذت قرارها ثم عاد فبني من حيث ترك وكلما بلغ البناء الى الحائط الذي قبله ادخله فيه وخيطه به ثم جعل على الباب قنطرة والمراكب كل ليلة تدخل المينا وتجر سلسلة بينها وبين البحر الاعظم مثل صور قال فدفع اليه الف دينار سوى الخلع والمركوب واسمه عليه مكتوب الى اليوم قال وكان العدو قبل ذلك يغير على المراكب

---

(١) دليل بيدكر لسورية وفلسطين

وفتحت عكا في حدود سنة ١٥هـ على يد عمرو بن العاص ومعاوية بن ابي سفيان وكانت [illegible] في [illegible] الروم [illegible] وقد ركب منها الى غزوة قبرص ورمها واعد ما [illegible] منها وكذلك [illegible] بصور ثم جددت عمارتها هشام بن عبد الملك وكانت فيها صناعة بلاد الاردن وهي [illegible] حدود الاردن ثم نقل هشام الصناعة منها الى صور [illegible] ثم انتقلت ايدي [illegible] فيها وعمرت عكا [illegible] وصارت بها الصناعة الى [illegible] الافرنج الى [illegible] وكانت [illegible] حتى اخذها الافرنج ومقدمهم [illegible] صاحب بيت المقدس من [illegible] بدر الجمالي او ابنه والذي [illegible] فيها من [illegible] في سنة ٤٩٧ [illegible] على عكا حتى [illegible] وكان [illegible] اليوم [illegible] جماعة [illegible] حتى وصل الى دمشق ثم [illegible] الى مصر و [illegible] حتى افتتحها صلاح الدين يوسف بن ايوب في جمادى الاولى سنة ٥٨٣ [illegible] الافرنج ونزلوا عليها [illegible] صلاح الدين [illegible] ثلاث سنين حتى استعادها الافرنج من المسلمين [illegible] في [illegible] الآخرة سنة ٥٨٧ واحضروا اسارى المسلمين [illegible] نحو [illegible] آلاف [illegible] عن آخرهم . [illegible] في الفتح القدسي [illegible] العرى

وقد استولى بودوين الاول على عكا سنة ١١٠٤ م بمعونة اسطول جنوي له وجعلها الصليبيون [illegible] لا لانزال جيوشهم بل ميناء تجارية كانت ترسو فيها سفن [illegible] و بعد وقعة حطين سقطت عكا بيد صلاح الدين ولكن سنة ١١٩١ حاصرها [illegible] من [illegible] واستولى عليها [illegible] الاسد [illegible] سنة ١١٩١ م واصبحت منذ ذاك الحين [illegible] في فلسطين وكانت [illegible] وكانت [illegible] سنة ١٢٩١ استولى عليها الملك الاشرف بعد مقاومة شديدة [illegible] عليها [illegible] الافرنج من هذه البلاد . [illegible] الارض

القدسة وفي حوالي منتصف القرن الثامن عشر استولى الشيخ ظاهر العمر على الجليل الاسفل وعلى جزء عظيم من الجليل الاعلى واتخذ عكا مقر امارته فعادت اليها نضرتها وخلفه في الامارة احمد باشا الجزار الذي وسع حدود امارته فامتدت شمالاً الى نهر الكلب وبعلبك وجنوباً الى قيسارية واشتهر بابنيته التي جلب لها المواد من عسقلان وقيسارية وغيرها . وبدأ الفرنسيس سنة ١٧٩٩ يحاصرون عكا وبعد ثماني وقائع جالت فيها الدماء الى الاعناق اضطر نابوليون ان يرجع عنها واستولى ابراهيم باشا سنة ١٨٣٢ على المدينة فنهبت وخربت ولكنها عادت فنهضت من كبوتها وفي سنة ١٨٤٠ ضربت الاساطيل الانكليزية والنمساوية ثغر عكا فخرب بذلك كل اثر من آثارها القديمة ثم تعاقب الخراب الاقتصادي عليها فكانت تجارتها رائجة لانها كانت سوق الحبوب التي ترد اليها من الداخلية ولا سيما من حوران فسقطت من هذه الوجهة خصوصاً لما قامت بعض موانئ سورية مثل بيروت وطرابلس وحيفا ويافا تنازعها في مكانتها وأنشئت سكك حديدية ربطت معظم هذه الموانئ بالمدن الداخلية وبقيت عكا في نجوة من الارض ضعيفة في تجارتها وهاجر كثير من اهلها ومنهم اناس من كبار تجارها وارباب الاملاك بها .

وقفنا على سورها نطل على ثغر عكا الذي اهرقت في سبيل الاستيلاء عليه دماء غزيرة ذلك السور الذي اعجز بمناعته صلاح الدين وجيوشه وتدبيره فارتد عنها غير مرة واهرق الصليبيون دماءهم في بسط ايديهم عليها ثم زحزحوا عنها بعد وقائع تشيب لهولها الرؤوس وهكذا صنع فيها الفاتحون لانهم كانوا يعتبرونها مفتاح سورية . ولطالما كانت عكا ترمي من برها وبحرها بالقذائف والنيران وكانت مجزرة يهلك فيها الانسان الانسان .

وقفنا على اسوارها ننظر الى المدينة التي اعجزت الملك الناصر والملك الظاهر وبونابرت ونتأمل في ارباضها القاحلة اليوم وكم جثة دفنت فيها وفي بحرها وهو يحدجها بعينه الزرقاء وكم ابتلع من اسطول بافيه . وقفنا وفكرنا ملياً في حال البشر يقتتلون في بسط سلطانهم وتكبير رقعة بلدانهم ويرتكبون كل منكر في سبيل المجد والفخار رأيناهم في القديم يقتتلون بحجة دينية واليوم هم كذلك ولكن بحجتهم مدنية واقتصادية وما المقصود في الواقع ونفس الامر الا الاستيلاء والتغلب وتوسيع نطاق الحكم والسلطان

وقفنا على اسوار عكا نندب في نفسنا الضعف البشري وقد استولى على النفس جلال

ذلك البلد وذكره ابو الفداء [illegible] في كل [illegible] وقد اردت ان آتي هنا على جملة من تاريخه لانه [illegible] بنفسه [illegible] واحدة [illegible] لا احلها الى [illegible] قال ابو الفداء ما نصه : سار السلطان الملك الاشرف خليل بالعساكر المصرية الى عكا وارسل الى العساكر الشامية وامرهم بالحضور وان يحضروا صحبتهم المجانيق فتوجه الملك المظفر صاحب حماة وعمه الملك الافضل وسائر عسكر حماة صحبته الى حصن الاكراد وتسلمنا منه منجنيقاً عظيماً يسمى المنصوري حمل مائة عجلة ففرقت في العسكر الحموي وكان المسلم اليَّ منه عجلة واحدة لاني كنت اذ ذاك امير عشرة وكان مسيرنا بالعجل في اواخر فصل الشتاء فاتفق وقوع الامطار والثلوج علينا بين حصن الاكراد ودمشق فقاسينا من ذلك بسبب جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب البرد شدة عظيمة وسرنا بسبب العجل من حصن الاكراد الى عكا شهراً وذلك مسير نحو ثمانية ايام للخيل [illegible] وكذلك امر السلطان الملك الاشرف بجر المجانيق الكبار والصغار ما لم يجتمع على غيرها [illegible] الاولى قال ابو الفداء [illegible] كانت [illegible] وكان يحضر الينا مراكب مقببة بالخشب الملبس بجلود الجواميس وكانوا يرموننا بالنشاب والجروخ [illegible] وكان لهذا على البلد [illegible] وتحصنوا بها وقتل [illegible] جميع [illegible] عن بالاوجهة [illegible] حول عكا ثم امر بمدينة عكا فهدمت الى الارض ودكت دكا ومن عجائب الاتفاق ان الفرنج استولوا على عكا واخذوها من صلاح الدين ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة واستولوا على من بها من المسلمين ثم قتلوهم فقدر الله عز وجل في سابق علمه انها تفتح في هذه السنة (٦٩٠) في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة على يد السلطان الملك الاشرف صلاح الدين فكان فتحها مثل اليوم الذي ملكها الفرنج فيه وكذلك لقب السلطانين

وهذا الجبل يبتدئ [illegible] عكا [illegible] من الاعصار ، ومن مدن الجليل صفد ولم يتيسر لنا زيارتها [illegible] في قمة جبل وهي ترى من طبرية [illegible] ومعظم سكانها يهود ويبعد [illegible] من [illegible] وليس في اهلها العربي [illegible] السبب الذي اورده ابو الفداء في حوادث

سنة ٦٦٤ قال وفي هذه السنة خرج الملك الظاهر بعساكره المتوافرة من الديار المصرية وسار الى الشام وجهز عسكراً الى ساحل طرابلس ففتحوا القليعات وحلبا وعرقا ونزل الملك الظاهر على صفد ثامن شعبان وضايقها بالزحف وآلات الحصار وقدم اليه وهو على صفد الملك المنصور صاحب حماة ولاحق الجند القادمة وكثر القتل والجراح في المسلمين وفتحها في تاسع عشر شعبان المذكور بالامان ثم قتل اهلها عن آخرهم .

ولقد كانت صفد في القرن السابع مملكة يقال لها مملكة صفد ومضافاتها (١) وصفد حصن بقمة جبل كنعان في ارض الجرمق كانت قرية فبني مكانها حصن سميت صفت ثم قيل صفد وهو حصن منيع وكان بها طائفة من الفرنج يقال لهم الداوية فحصرهم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي وفتحها وقتل كل من فيها الى رأس تل بالقرب منها ثم رممها وبنى في وسطها برجاً مدوراً سماه قلة ارتفاعه في السماء مائة وعشرون ذراعاً وقطره سبعون ذراعاً والى سطحه طريقان يصعد في الطريق الى اعلاه خمسة افراس صفاً بلا درج في ممشى حلزوني وهو ثلاث طبقات ابنية ومنافع وقاعات ومخازن وتحته كله جب لماء من الشتاء يكفي لاهل الحصن من الحول الى الحول اشبه بمنارة اسكندرية وبهذا الحصن بئر تسمى الساقورة وعمقها مائة وعشرة اذرع في ستة اذرع بذراع النجار والدلاء التي لها بتاتي من الخشب تسع البتية نحو قلة من الماء وهما بتيتان في حبل واحد يسمى سرياقاً كغلظ زند الانسان وكلما وصلت بتية الى الماء وصلت الاخرى الى رأس البئر وكلما وصلت واحدة الى رأس البئر وصلت الاخرى الى الماء وفي رأس البئر ساعدان من حديد بكفين واصابع تتعلق الاصابع في حافة البتية الملآنة وتجذبها الكفان فينصب الماء في حوض يجري فيه الى مقره فاذا انصب الماء من البتية حصل القصد والجاذب لهاتين البتيتين مرمة هندسية تسمى دولاب وحركات ولا يزل ذلك السرياق راكباً على بكرة طرداً وعكساً يمنة ويسرة وحول المرمة بغال معلقات تدور بذلك فاذا سمع البغل الدائر خرير الماء وجر السلسلة انقلب راجعاً الى عقبه ودار يمشي في مرتبته بخلاف ما كان يمشي الى ان ينقطع خرير الماء وجر السلسلة فينقلب دائراً على خلاف دورته كذلك وهي من اعاجيب الدنيا واذا وقف واقف وتكلم كلمة واحدة في رأس البئر سمع رجع صوته بتلك الكلمة نازلاً نحو الحلقة جيدة حتى يبلغ الماء ثم يعود اليه فيسمعه كما قالها فان صاح وغلب سمع دوياً واضطراباً بذلك الصياح كالرعود لبعد الماء وعمقه . ومن اعمال صفد

---

(١) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر شمس الدين الانصاري المعروف بشيخ الربوة

مرج عيون وأرض الحولة وهي مدينة قديمة عادية كانت بها طائفة من العبرانية يسمون [illegible] والكنعانيون ولد كنعان ابن نوح ومن عملها جبل بقيعة و(البقيعة) قرية يقال لها البقيعة لها أودية جارية ولها سفرجل مليح وبه قرى كثيرة الزيتون والفواكه والكروم وجبل الزابود مشرف على صفد والزابود قرية وبها أيضاً قرى كثيرة

وفي بلاد الجليل أو عمل الأردن قرى داثرة ذكر بعضها ياقوت في معجمه مثل (كفر سبت) وهي قرية بين عقبة طبرية و(كفر عاقب) وهي قرية على بحيرة طبرية من أعمال الأردن ذكرها [illegible] فقال:

أتاني [illegible] الأدنين وأنهم [illegible] السودان في كفر عاقب
ولم يصدقوا في [illegible] [illegible] في [illegible] عن كاذب

ومثل (كفرمندة) قرية بين عكا وطبرية بالأردن يقال إن مدين المذكورة في القرآن والمشهور أن مدين في شرقي الطور وفي كفرمندة قبر صفوراء زوجة موسى عليه السلام وفيها الجب الذي قلع الصخرة من عليه وسقى لها والصخرة باقية هناك إلى الآن (اللفظ لياقوت) وفيه ولدان ليعقوب يقال لهما أشير ونفتالي

و(دبورية) بليدة قرب طبرية من أعمال الأردن قال أحمد بن منير

لئن كنت في حلب ثاوياً فجسمي [illegible] القصير بدبورية

و(دير الطور) [illegible] زعموا أن عيسى عليه السلام علا عليهم فيه و(خيارة) قرية قرب طبرية من جهة عكا قرب حطين بها قبر شعيب النبي عليه السلام عن الكمال بن العجمي و(عقربا) بلد من نواحي الأردن قرب بيسان وطبرية و(الصنبرة) موضع بالأردن مقابل عقبة أفيق بينه وبين طبرية ثلاثة أميال كان معاوية يشتو بها و(أربد) بالفتح ثم السكون والباء الموحدة قرية بالأردن قرب طبرية عن يمين طريق المغرب بها قبر أم موسى بن عمران عليه السلام وقبور أربعة من أولاد يعقوب عليه السلام وهم دان وإيساخار وزبولون وكاد فيها أيضاً و(إسكندرونة) قال ياقوت وجدت في بعض تواريخ الشام الإسكندرونة بين عكا وصور و(الأقحوانة) قرية من قرى الأردن بينها وبين طبرية خمسة فراسخ من جهة الرملة [illegible] لها ذكر في بعض الأخبار كانت بها وقعة بين أصحاب سيف الدولة بن حمدان وكافور الإخشيدي فقتل أصحاب سيف الدولة كل مقتل.

و(بعينا) من نواحي الأردن بالشام و(الزيب) قرية كبيرة على ساحل بحر الشام قرب

عكا و(صفورية) كورة وبلدة من نواحي الأُردن بالشام وهي قرب طبرية و(الاقحوانة) موضع بالأُردن من ارض دمشق على شاطيء بحيرة طبرية حدث هشام بن الوليد عن ابيه قال خرج قوم من مكة نحو الشام وكنت فيهم فبينا نحن نسير في بلاد الأُردن من ارض الشام اذ رفع لنا القصر فقال بعضنا لبعض لو ملنا الى هذا القصر فأقمنا بفنائه حتى نستريح ففعلنا فبينا نحن كذلك اذ انفتح باب القصر وانفرج عن امرأة مثل الغزال العطشان فرمقها كل منا بعين وامق وقلب عاشق فقالت : من اي القبائل انتم ومن اي البلاد قلنا : نحن المسلمين من ههنا وهناك فقالت ايكم من اهل مكة قلنا : نعم . فانشأت تقول

من كان يسأل عنا اين منزلنا فالاقحوانة منا منزل قمن
وان قصرت بي هذا مابه وطني لكن بمكة امسى الأهل والوطن
اذ نلبس العيش صفواً مايكدره قول الوشاة وما ينبو به الزمن
من كان ذا شجن بالشام يألفه فبالاباطح امسى الهم والحزن

ثم شهقت شهقة وخرت مغشية عليها فخرجت عجوزة من القصر فنضحت الماء على وجهها وجعلت تقول في كل يوم لك مثل هذا مرات تالله لموت خير لك من الحياة فقلنا ايتها العجوز ما قصتها فقالت كانت لرجل من اهل مكة فباعها فهي لاتزال تنزع اليه حنيناً وشوقاً .

هذا مايتيسر نقله مما أثرت به النفس في رحلة قصيرة الى تلك الكورة في الشهر الماضي .

ولو وثق اهالي عكا الى تحقيق مايفكرون به ويلتمسونه من الحكومة من الحاق لوائهم بولاية سورية لاصبحت مدينتهم او حيفا ميناء مهمة لدمشق ومورد التجارات من اوربا ومصدر الغلات من الاردن وما وراء بلاد الجليل وحوران القديم ولما اضر ذلك بعمران بيروت وطرابلس ضرراً يذكر اذ كل بلد ينال اذ ذاك قسطه من الرقي . وقد كان الفكر الشائع يوم بوشر بمد شعبة من السكة الحجازية من حيفا ان تسقط بيروت عن مكانتها التجارية فرأيناها بعد ان تم ذلك الخط قد زادت بيروت مكانة ولم يغادرها من التجار الا افراد قلائل وعمرت حيفا بعض الشيء واذا جعلت لهذه ميناء ترسو فيها السفن آمنة كما هي الحال في بيروت ترتقي ايضاً زيادة ولا تضر غيرها

والعمران كالثروة لايجدي وينفع الا اذا كان موزعاً بين البلاد على التساوي وحبذا يوم يكون فيه لكل ميناء من موانئ سورية صغيرة كانت او كبيرة مرفأ امين للسفن وخط حديدي يصلها بالبلاد الداخلية ولو بخطوط زراعية ضيقة يومئذ يقال ان سورية دخلت في دور العمران